الفصل السابع

من شيكسبير إلى ملتن

(١) الشعر

كان للشعر فى عصر اليصابات نغمةٌ غنائية حلوة الإيقاع ، وكان يجرى فى سلاسة طبيعية لا صنعة فيها ولا تكلف ، فجاء رشيقاً خفيفا تقرؤه فتحسب الشاعر قد أرسله من فوره إرسالا لا عناء فيه .

وكان من الطبيعى إذا ما انقضى ذلك العصر الزاهر أن تنهض جماعة من شباب الشعراء فتزعم أنها قد سئمت ذلك الضرب من الشعر الذى يجرى فى يد الشاعر فى هوادة ورفق ، لذلك قام « دَنْ » وأتباعه فغيروا أوضاع الشعر فى عصر اليصابات ؛ رأوا فى الشعر الأليصاباتى إفاضة فى القول ، فاستبدلوا بها فى شعرهم إيجازا واقتضابا ، ورأوا فى الشعر الأليصاباتى صوراً واستعارات مستقيمة لاعوج فيها ولا التواء ، فاستبدلوا بها مقارنات بين الأشياء فيها عنصر الغرابة والمباغتة والدقة ، ورأوه شعرا وصفيا فاستبدلوا به شعراً يحلل ، وألفوا شعراء عصر اليصابات يسودهم الفرح بالدنيا والإقبال عليها فى تفاؤل ، فآثروا هم صبغة الجد والتشاؤم والإغراق فى التفكير الدينى ؛ وكان الشعراء فى عهد اليصابات متشابهين فى الروح والأسلوب حتى ليتعذر أن يميز شاعراً من شاعر ، أما هذه الطائفة الجديدة التى أعقبتهم فنمتْ فى أفرادها الروح الفردية وأصبح لكل منها طابع خاص يتميز به .

تلك هى الجماعة من الشعراء التى أطلق عليها « الدكتور جونسُنْ » اسم « الشعراء الميتافيزيقيين » (شعراء ما وراء الطبيعة) فأصبح هذا الاسم دالاً عليها فى تاريخ الأدب . ولعل السبب فى إطلاق هذا الاسم على « دَنْ » وأتباعه الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن السابع عشر هو أنهم كانوا ينشدون المعانى الغريبة ، ويستخدمون عقولهم ويؤثرون الفكرة العميقة ، ويتجهون بمجهودهم العقلى والخيالى نحو التأمل فى ذات الله وفى علاقة

الإنسان به ، فكان شعرهم مما يصح أن يسمى شعرا دينيا .

ولنتناول هذه الجماعة الميتافيزيقية بشيء من التفصيل :

جون دن John Donne (١٥٧٣ — ١٦٣١) :

هو مؤسس « المدرسة الميتافيزيقية » فى الشعر الانجليزى وأعظم شعرائها . ويمكن تقسيم شعره إلى شعر غزلى يمتد منذ بدأ ينشئ الشعر وهو فى عامه العشرين حتى بلغ من عمره الثامنة والعشرين ، وشعر دينى سبقته بعض القصائد التى يسودها عمق التفكير .

أما قصائده الغزلية فكانت قبل زواجه تختلف عنها بعده ؛ فهى قبل الزواج تنم عن الشاب الذى غلبته الحواس فأرخى لنفسه العنان فى شهواته وعواطفه دون أن يكون له من ضميره رادع زاجر ؛ ثم أصبح غزله بعد الزواج أعف وأطهر ، ولئن كان بين المرحلتين صفة مشتركة فهى الإخلاص فى التعبير .

وتنقضى فترة الغزل فى شعره لتبدأ المرحلة التمهيدية لشعره الدينى ، نعنى مرحلة التأمل العميق ، وأهم قصائده فيها قصيدة « ترقى الروح »(١) وقصيدة « تشريح العالم »(٢) ؛ ففى القصيدة الأولى يتتبع خطوات الترقى لروح يفرض وجودها فى تفاحة حواء ، فيتتبعها فى النبات ثم فى الحيوان حتى يبلغ بها أعلى مراحلها فى الإنسان ؛ وفى القصيدة الثانية يستأنف مسير الروح من هذا العالم إلى العالم الآخر .

وتجىء بعد ذلك مرحلة شعره الدينى الذى يسجل فيه خطرات حياته الروحية ، فتراه يسبح بفكره الدقيق النافذ وخياله القوى المشتعل فى مشكلات الكفر والإيمان ؛ فهو آنا خاضع لله العلى خضوعا لا ثورة فيه :

رباه ياجامع الثالوث حطم فؤادى

***

اطرحنى أرضا ، ثم عَلَىَّ بقواك
تمزيقا وتحطيما وإحراقا ، لتصوغنى من جديد
لعلنى بذاك أنهض وأستقيم على قدمين

---

(١) The Progress of the Soul .

(٢) The Anatomy of the World .

وهو آناً يقف ليتساءل : « إذا لم تكن الأفاعى الحاقدة حقيقةً بلمسة الله ، فماذا أكون ؟ » .

ويتميز شعر « دَنْ » فى هذه المرحلة الدينية — فضلا عن خصائصه العقلية والعاطفية والخيالية التى أشرنا إليها — بالغموض والمفارقة والعنف ؛ فغموضه راجع إلى أن أفكاره أعمق مما تستطيع الألفاظ أن تعبر عنه فى يسر وطلاقة ، أضف إلى ذلك محاولته الإيجاز وعدم الإسراف فى استخدام الكلمات مما يزيده غموضاً ؛ والمفارقة فى قصائده كثيراً ما تبلغ حداً ينبو بها عن الذوق ؛ فتبدأ القصيدة رخيَّةً جميلة لتنتهى وعرة غامضة . أما عنف عباراته فكثيراً ما يكون حسنة فى شعره ، وذلك حين يكون انسجامٌ بين تلك العبارة القوية المفاجئة الشاذة و بين فكره القوى وعاطفته المحتدمة .

وهاك بعض أمثلة من شعره :

الرســـــالة

رُدِّى إلىّ عينىّ اللتين طال بهما الضلال ،
واللتين — واحسرتا — أسرفتا فى النظر إليك ،
لكن إن كانتا قد تعلمتا السوء حيث كانتا
فعرفتا الأساليب المفتعلة
ومارستا العواطف المبتذلة
بحيث أصبحتا
بالذى منك تعلمتا
لا تصلحان للبصر السليم ، فاحفظيهما لديك
ردى إلىّ وديع قلبى من جديد
الذى لم تكن دنسته الأباطيل
لكن إن كنتِ قد عَلَّمتِهِ
أن يكون فى الجد
ما يكون فى الهزل
وأن يكون مخْلِفا حانثاً

فى الحلف والوعد

فاحفظيه لا ترديه ، إنه لم يعد قلبى

ومع ذاك فردّى إلىّ قلبى وعينىّ

لعلى أرى وأعلم ما تكذبين علىّ

أو لعلى أضحك وألهو

حين تكتئبين

وحين تضعفين فتنشدين

تنشدين زميلا

فلا تجدين زميلا

أو حين تبدين ما يبدو منك اليوم من زيف

ومن شعره :

أيتها الألفاظ ! اشدّ ما بك من ضعف وضيق

فهيهات أن ننفث فيك كروبنا ؟ إن عظائم الكروب لا تتكلم ؛

فلو استطعنا أن ننفث التنهد نبرات ، والبكاء كلمات

اقلّ الكربُ وامّحى ، لأن له فى العبرات مخرجا ؛

إن القلوب الحزينة كلما بدا حزنها ضئيلا كان حزنها جسيما

— كما يزداد صمت المجرم أمام القضاء كلما ازداد وزراً —

لا لأن القلوب الحزينة لا تدرك حالها ولا تشعر به

بل لأن شدة الإحساس قد أفقدتها الرجاء

ومن شعره الدينى :

ترنيمة إلى الله

أتغفر لى يا رباه الخطيئة التى بها بدأت ،

والتى وإن اقترفت قبل وجودى فهى خطيئتى ؟

أفتغفر لى يا رباه تلك الخطيئة التى فى لوثها أخوض
وما أزال فيها أخوض ، و إن كنت لا أنفكُّ نادما ؟
إنك إن غفرت لى ، فلم تغفر ،
لأن وزرى غيرها كثير

أفتغفر لى يا رباه تلك الخطيئة التى استملْتُ إليها سواى
فزل فيها ، فجعلتُ لهم من خطاياى أبوابا منها يدخلون ؟
أفتغفر لى يا رباه تلك الخطيئة التى اجتنبتها
عاما أو عامين ، لكى تدنست بها عشرين عاما ؛
إنك إن غفرت لى ، فلم تغفر ،
لأن وزرى غيرها كثير

إن من خطاياى الخوف ، فأخشى أننى إذا ما أتممت
غزْلى حتى آخر خيوطه ، فنيتُ على الشاطئْ ؛
فأقسم لى بنفسك أن يضىء « ابنك » عند موتى
كما يضىء الآن ولن يزال يضىء إلى يوم الدين
فإن فعلت هذا ، فقد فعلت كل شىء
فلن أخشى بعد ذلك شيئاً

ذلك هو « چون دَنْ » زعيم « المدرسة الميتافيزيقية » فى الشعر . وكان له أتباع نكتفى بذكر أسمائهم مقرونة بنماذج من شعرهم ، لعلنا بذلك نلقى ضوءاً أقوى على اتجاهات الشعر الميتافيزيقى الذى أعقب شعراء عصر اليصابات ؛ فمن هؤلاء الأتباع « چورچ هربرت »(١) (١٥٩٣ — ١٦٣٣) ، ومن خير شعره قصيدة عنوانها « الفضيلة » :

أيها النهار الجميل الذى اجتمع له السكون والإشراق وعليل الهواء

---

(١) George Herbert .

كأنك يوم عُرْس للسماء والأرض
إن الندى سيبكيك حين تنقضى عند إقبال المساء
لأنك عندئذ لابد أن تموت

أيتها الوردة الجميلة التى أرى صبغتها — من غضب و إقدام —
تأمر المحدِّق الجرئ أن يغض من عينيه
إن جذورك ما تزال أبداً فى قبرها
ولابد لك يوما أن تموتى

أيها الربيع الجميل الذى تملؤه جميل الأيام والورود
كأنك الصندوق امتلأت جنباته بالحلوى صنوفا
إن أنغامى لتنبئنى أن لأيامك أجلاً عنده تزول
ولابد لكل شىء يومئذ أن يموت

إلا نفساً رضيَّةً فاضلة
فلن تفنى كأنما هى الخشب تجمَّدَ من تغير الأجواء
فلو رُدَّ العالم كله فحما هشيما
لظلت وحدها قائمة

ومن رجال هـذه المدرسة « رتشرد كراشو »[1] (١٦١٣ — ١٦٤٩) الذى يطلق لنفسه العنان فى تصوراته الميتافيزيقية متابعاً فى ذلك « دَنْ » و « هربرت » ، وله فى الشعر الدينى قصائد غر جياد .

قال فى قصيدته « القديسة تريزا وقلبها المشتعل »[2] :

أنت ياوليدة الشهوات التى لم تفزع
نشدتك كلَّ ما تملكين من أنوار ونيران ،

---

(١) Richard Crashaw .

(٢) Flaming Heart of St. Teresa .

نشدتك كل ما فيك من قوة النَّسْرِ ورقة الحمائم ،
نشدتك كل ما لقيتِ فى الحب من حياةٍ وموت ،
نشدتك ساعاتٍ طوالٍ أَنْفَقْتِها من نهارِكِ فى التأمل
ثم نشدتك ساعاتٍ أطول منها ظَمِئْتِ فيها للحب ،
نشدتك تلك القبلة الأخيرة ومالها من مُلْكٍ عريض
نشدتك كل ما لك من كؤوس أُتْرِعتْ بالشهوة الحامية ،
نشدتك جرعةً من ذوب النار ارتشفتها ذاك الصباح ،

* * *

لا تبقى منى على شىء
دعينى أطالع سيرتك
كى أفنى ما بقى لى من حياتى !

ومن شـــعره :

العَـــبْرة

أى مارى الجميلة ، وما ذلك الشىء الوضىء اللامع
الذى تسفحه عيناك الجميلتان ؟
إنه جذوة مبتلة
إنه ماسة من ماء
ولعل منها ما قال القائلون :
« ماء الماسة »

كلا . فما هى بعَبْرة
إنها نجم على وشك السقوط
من فلـكها ، وعينك ذاك الفلك ؛
سوف تنحنى لها الشمس لتعلو بها

وستختال أخت الشمس بها كبرياء
إذ تحلّى أذنها بجوهرة سقطت من عينك

ومن رجال المدرسة الميتافيزيقية أيضا « هنرى فوجَنْ »[١] (١٦٢٢ — ١٦٩٥) ومعظم قصائده الجيدة دينيّ الموضوع والروح ، ومن خيرها قصيدته « العودة »[٢] التى يتمنى فيها أن يرتد طفلاً صغيرا لا يدور فى خلده إلا أفكار طاهرة . فالطفل فى استطاعته أن يرى لمحة من وجه الله حين ينظر إلى سحابة أو زهرة . إن الناس قد يتمنون السير إلى الأمام ، أما الشاعر فى هذه القصيدة فيود أن تسير به الأيام إلى الوراء ليعود إلى حيث الطهر والنقاء .

وكذلك تستطيع أن تسلك فى جماعة الميتافيزيقيين من أتباع « دَنْ » « ابراهام كاولى »[٣] (١٦١٨ — ١٦٦٧) ، ولو أنه فى الحقيقة مرحلة انتقال بين هذه الجماعة وبين طائفة من الشعراء أعقبتها تؤثر الأوضاع القديمة التقليدية . وسنحدثك عنها بعد قليل .

اقرأ له هذه الأبيات التى تدل على نزعته الميتافيزيقية القوية التى تتعلق بالمقارنات العجيبة والتشبيهات التى تستوقف القارئ بغرابتها :

الحب فى عينيها المشمستين
الحب يمرح فى عينيها المشمستين ليصطلى الدفء فيهما ؛
الحب يمشى فى المتاهات الممتعة التى فى ثنايا شعرها ،
الحب ما ينفك شارداً على كلتا شفتيها ،
وهنالك يبذر ثم يحصد ألوف القُبَل
الحب دَوْما يُرى فى ظاهر أجزائها طرًّا
ولكنه — أواه ! — لم ينفذ إلى دخيلتها أبداً

---

(١) Henry Vaughan .
(٢) The Retreat .
(٣) Abraham Cowley .

ومن لطيف شعره :

النفـــــس

لو أن عينى يوماً أعلمتنا
أن شيئاً فى جمالك قد رأتا ؛
أو زعمتْ أذناى أن صوتا سوى صوتك
فيه من الموسيقى لحنٌ مثل لحنك ؛
أو أننى استمرأتُ شيئاً فى الطعم
فوجدته فى حلاوة قبلةٍ منك على فمى ؛
أو حاسةُ اللمس منى ضَلّتْ سبيلا
فظنّتْ سواك بضًّا جميلا !
لو كان مابه الربيع يزدهرْ
أو ما يرسله الشرق من صيفٍ عطرْ
يستطيع أن يقنع شَمِّى
بالأريج غيرَ أنفاسكِ أن يُسَمِّى ؛

***

لحقّ علىّ أن ترانى تافهًا عيناكِ
كما أرى كلّ شىء تافهًا إلاكِ

وبينما كانت « المدرسة الميتافيزيقية » بمثابة رد فعل أعقب عصر اليصابات ، فحلّ فيها التصنع وغرابة المقارنة والتشبيه محل النغمة الطبيعية فى عصر اليصابات ، وأنشأت قصائدها فى الدين بعد أن كان الشاعر الاليصاباتى وثنىّ النزعة يسترعى انتباهه الشىء الجميل ؛ نقول بينما كانت « المدرسة الميتافيزيقية » سائرة فى طريقها الذى أوضحنا ، نشأت فى إنجلترا طائفة أخرى من أصحاب الشعر الغنائى فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، تحتفظ بالروح الشعرية الغنائية التى عهدناها فى عصر اليصابات من حيث الطلاوة والعلاقة والتدفق ؛ لكنها تختلف عن عصر اليصابات فى شدة عنايتها بالصقل والتجويد ، فكأنما كان الشعر الغنائى فى عصر اليصابات ينبوعاً يتفجر منه الماء بطبيعته . وشعر هذه الطائفة

آلة صناعية مركبة تستخرج الماء ، كلاهما ينساب منه الشعر سلساً رشيقاً ، لكن الشاعر الاليصاباتى ينشده بغير نَصَبٍ أو عناء ، والشاعر من هؤلاء يبذل فى إخراجه مجهوداً مضنياً .

وكان على رأس هذه الطائفة « بن جونسُنْ » الذى قدمناه فى ختام الفصل السابق ، ومن شعره :

إلى ـــــــــيليا

لا تسقينى الخمرَ إلا بعينيكِ
وسأجعل لها من ناظرىّ رهينة ؛
أو اتركى لى فى الكأس قبلة
فلن أنشد بعد ذاك شرابا ،
إن ما بالروح من ظمأ
إنما يرويه خمر إلهية
ولكنى لو أعطيت من خمر الأرباب ما أشتهى
ما رضيت بها عن خمر عينيك بديلا

لقد بعثت إليك منذ قريب باكليل من الورد ،
ولن يزيد ذلك من قدرك
بقدر ما يفسح للورود من أمل ،
فأملها ألا يصيبها لديك ذبول ؛
لكنك نفثت فى الاكليل أنفاساً
ثم أرجعته إلىّ
ومنذ ذلك الحين والورد ينمو ويرسل عبقاً ،
وما ذاك — وربى — من الورد ، إنما هو من نفثتك

ومن أغانيه الرائعة التى وردت فى روايته « إيكين ، أو المرأة الصامتة » هذه الأغنية :

تأنقى ما شئتِ ، والبسى ما شئتِ ،

كأنما أنت إلى وليمة ذاهبة ؛
تزيني بالمساحيق ما شئتِ ، وانثرى من العطر ما شئتِ ،
فأنا زعيم لك ، سيدتى ،
أنكِ و إن أتقنتِ الفنّ فأخفيت أسبابه
فليس ذاك جمالا وليس ذاك كمالا
أعطيني جميل الملامح ثم أعطيني صبوح المحيّا
مما يجعل البسيط جميلا ؛
إن الثوب ترسلينه إرسالا والشَّعْرَ تهملينه إهمالا ،
فمثل ذاك الإهمال الجميل أشدُّ سحراً لنفسى
من خوادع الجمال المصنوع كلها
فهذه تستوقف عينيّ ولا تستهوى فؤادى

وكان روبرت هِرِكْ[1] (١٥٩١ — ١٦٧٤) أنبغ «أبناء بِنْ» — كما كان يطلق على أتباع «بنْ جونْسُنْ» — وقد تغزل فى جمال الجسد وافتتن بجمال الريف وأحب الأزهار ، ومن جيد شعره :

إلى أزهار النرجس

أيها النرجس إنّا لنبكى إذ نراك
تمضى إلى الفناء وشيكا ،
هأنت ذا تمضى والشمس التى بكّرت فى شروقها
لم تبلغ بعد فى السماء أوجها
قف ، قف ،
حتى ترى النهار المسرع فى خطاه
قد تقضّى
قف حتى نغنى أنشودة المساء ،

(١) Robert Herrick .

فإذا ما أدّينا الصلاة معاً
فسنمضى معك إلى حيث تريد

إن آجالنا لتماثل أجلك فى القصر ،
ور بيعنا ينقضى فى سرعة ر بيعك ،
وننمو مسرعين كما تنمو ، ثم نفنى
كما تفنى أنت وتفنى سائر الأشياء ؛
إنّا لنقضى
كما تنقضى ساعاتك ،
ثم نذبل ونذوى
ونمضى كما تمضى أمطار الصيف ؛
أو كلآلئ الندى فى الصباح
فنذهب ولا نؤوب

ومن « أبناء بن » — كذلك — « رتشرد لَفْليس » (١٦١٨ — ١٦٥٨) الذى كان مشايعاً للملك فأوذى فى سبيله ، ومن جميل شعره قصيدة يوجهها إلى حبيبته وهو ذاهب إلى حومة القتال ، فيقول فيها إنه ليعدّ بغير قلب إذا هو خلّف حبيبته وذهب إلى القتال ، لكنه إذا لم يكن محباً للشرف فليس هو جديراً بحبها .

وسُجِنَ الشاعر فى سبيل الملك ، فكتب إلى حبيبته من السجن يقول :

ليس السجن جدراناً من صخور ،
وليس القفص قضباناً من حديد ؛
فتلك عند العقول الهادئة البريئة
كصوامع الرهبان ؛
فلو كنت فى حبى حراً ،
ولو كنت فى نفسى طليقاً ،

---

(١) Richard Lovelace .

فذالك ما أبغى ، فلا يعرف مثل هذه الحرية
إلا الملائكة التى تحلق فى أجواز السماء

(ب) النثر :

لئن بلغت آيات العصر الاليصاباتى فى الشعر والمسرحية من الروعة ما لا يكاد يدنو منها منافس فى سائر العصور ، فقد كان النثر فى ذلك العصر معيبا لا يؤدى رسالته على الوجه الأكمل . ولعلك تذكر خصائص الأسلوب « اليوفيوزى » الذى ساد عندئذ والذى ينمق العبارة ويزخرفها ، كأنما نسى معه الكاتب أنه ناثر ، فراح يثقل عبارته بخصائص الشعر ، أو ما خيل اليه أنه من خصائص الشعر ، فجاءت كتابته لا هى بالشعر الصحيح ولا هى بالنثر الصحيح

وجاء النصف الأول من القرن السابع عشر فتقدم النثر خطوة نحو النثر بمعناه الحديث ، وذلك على يدى « بيكن »[١] وإن كان ذلك التقدم لم يخل من علامات انتكاس ورجعية ، فلبث « براون »[٢] و « بيرتن »[٣] و « ملتن » يكتبون العبارات الطويلة الملتوية جريا على أوضاع القديم

وكما لاحظنا فى الشعر أن شعراء العصر الاليصاباتى تشابهوا حتى تتعذر التفرقة بينهم ، أما من جاءوا بعدهم فى النصف الأول من القرن السابع عشر فقد تحددت شخصياتهم وأصبحت لهم خصائصهم المميزة ، فكذلك نلاحظ فى النثر . فهيهات أن تفرق بين نثر كتبه « للى »[٤] ونثر كتبه « سدنى » — مثلا — لكنك تستطيع بعد دراسة وجيزة أن تميز نثر بيكن فلا تخلط بينه و بين نثر « بيرتن » أو « براون » ممن أعقبوا عصر اليصابات

ونحن نصور لك فى إيجاز أعلام النثر فى الفترة التى نؤرخها : من شيكسپير إلى ملتن ، أى النصف الأول من القرن السابع عشر

فرانسس بيكن Francis Bacon (١٥٦١ — ١٦٢٦) :

ولد « بيكن » فى الثانى والعشرين من شهر يناير سنة ١٥٦١ فى مدينة لندن ، من كريمة مجيدة ، فقد كان أبوه السير نكولاس بيكن يتربع فى منصب من أسمى مناصب

---

(١) Bacon . (٢) Browne . (٣) Burton . (٤) Lyly .

الدولة ، وكان نابهاً نابهاً ذائع الصيت واسع الشهرة ؛ فان يكن قد خَفَتَ اسمه فما ذاك إلا لأن ذكر ابنه قد طغى عليه فبدده فى ظلاله ، فكأنما كانت أسرة بيكُنْ تسير نحو العبقرية صاعدة جيلا بعد جيل حتى بلغت الذروة فى فرانسس بيكُنْ ؛ وكانت أمه سليلة بيت عريق ، حصَّلَتْ من العلم وأصول الدين قدراً محمودا ، فأخذت ترضع ابنها من علمها الواسع ، ولم تدخر وسعاً فى تنشيئه وتكوينه منذ نعومة أظفاره لتخرج منه رجلا قويا ؛ ولما بلغت سنه الثانية عشرة أرسل إلى جامعة كيمبردج ، حيث لبث أعواماً ثلاثة ترك الجامعة بعدها ساخطاً ناقما على مادة التدريس وطريقته على السواء ، فقد كره ذلك الجدل الفارغ العقيم الذى لاينتهى فى أغلب الحالات إلى شىء ذى غناء .

وما بلغ السادسة عشرة من عمره حتى انخرط فى سلك الوظائف السياسية ، فعين فى السفارة الإنجليزية فى فرنسا ، ولبث هناك عامين ، ثم باغته القدر بموت أبيه فعاد مسرعا إلى لندن ؛ وما هو إلا أن أخذت مواهبه الأدبية فى الظهور والذيوع ، فانتخب عضواً فى مجلس النواب ، وسرعان ماجذب اليه الأنظار لبلاغته الساحرة و بيانه الخلاب

ولما كان عام ١٥٩٥ ، أهداه صديق له معجب بنبوغه ، هو الايرل اسكس [1] ضيعة واسعة درت عليه ثروة طائلة عريضة هيأت له أسباب الترف والنعيم ، وكانت هذه الهبة العظيمة من ذلك المحسن الكريم جديرة أن تأسر بيكن ، ولكن حدث لهذا الصديق أن فترت بينه وبين الملكة اليصابات ما كان بينهما من روابط وصلات ، واستحكمت بينهما الخصومة واشتد النفور ، فدبر إسكس هذا مؤامرة خفية يريد بها أن يزج الملكة فى ظلمات السجن ثم يرفع إلى العرش ولى عهدها ؛ وكاشف بيكُنْ بما صحت عليه عزيمته ، وهو لا يشك فى أنه إنما يكاشف صديقاً مخلصاً ، ولكنه لشدَّ ما دهش حين أجابه بيكُنْ باحتجاج صارخ على هذه الخيانة الشائنة ضد مليكة البلاد ، وبانذاره أنه سيؤثر ولاءه الملكة على عرفانه للجميل ، ومضى إسكس فى مؤامرته ، وحشد جيوشا سار بها إلى لندن لكنه هزم وقبض عليه ؛ وكان بيكُنْ عندئذ فى أكبر مناصب القضاء ، فلم يتردد فى اتهام الرجل الذى أكرمه وأحسن اليه حتى حُكم عليه بالإعدام

واتُّهم بيكن فى أخريات حياته بالرشوة ، واستدان وعجز عن الوفاء بدينه ، وهكذا

---

(١) Earl of Essex .

خالطت تلك العظمة عناصر الضعف والضّعة ، وحقّ لپوپ أن يقول عنه بيته المشهور « إنه أعظم وأحكم وأخس إنسان بين البشر » .

كان « تقدم العلوم »[٣] فى طليعة الإنتاج الأدبى لبيكُنْ ، وهو كتاب فيه جانب من فلسفته ، ثم هو فى الوقت نفسه يذكر لوضوح عبارته وجودة بنائها .

ولكن آيته الأدبية التى استحق من أجلها أن يذكر علماً من أعلام الأدب هى مجموعة « مقالاته » ؛ فإليه يرجع الفضل فى إدخال « المقالة » فى الأدب الإنجليزى ؛ فلقد ذكرنا فيما سلف عن « مونتينْ » أنه أول من كتب « المقالة » بالمعنى الأدبى الذى تواضع عليه الناقدون ، وقد أخرج « مونتينى » الجزءين الأولين من مقالاته سنة ١٥٨٠ ، فترجمهما إلى الإنجليزية « فلوريو » سنة ١٦٠٣ كما ذكرنا من قبل . وعن « مونتينى » أخذ بيكُنْ اسم « المقالة » وروحها ، والمقالة عند بيكُنْ مجموعة من الخواطر يسوقها حول موضوع معين بغير أن يعنى بترتيبها ؛ فليس لها فاتحة يستهل بها الحديث وليس لها ختام يُشعرك بنهايته . إنما هى — كما قلنا — سلسلة من الخواطر يسوق بعضها بعضاً ، ويتخللها أقوال مقتبسة وحكايات يذكرها لتوضيح المعنى ولتأييد وجهة نظره ، وليس بين هذه الخواطر من رباط إلا أنها تقع تحت عنوان واحد ؛ ومما يميز أسلوب بيكُنْ فى « مقالاته » التركيز الشديد ، فمعنى ضخم فى لفظ قليل . على أن بيكُنْ لم ينته بكتابة « المقالة » كما بدأها ، فقد نشر من المقالات أول ما نشر عَشْرًا ، وكان ذلك سنة ١٥٩٧ ، وكانت المقالة فى هذه البداية قصيرة مركَّزة حتى لكأنها مجموعة من الحِكَم ، فلما كان عام ١٦١٢ ، أعاد كتابة هذه المقالات الأولى ووسّع فيها ، ثم أضاف إليها تسعاً وعشرين ، ثم عاد سنة ١٦٢٥ فزاد فى إطالة مقالاته الأولى وأضاف إليها مقتبسات وحكايات ، ونشر معها إحدى وعشرين مقالة جديدة .

ونستطيع أن نقسم هذه « المقالات » إلى مجموعات أربع ، فمجموعة تدور حول الإنسان فى حياته الخاصة ، ومجموعة ثانية تتناول الإنسان فى حياته العامة ، وثالثة تعالج أمور السياسة ، ورابعة تبحث فى موضوعات مجردة .

ومن أمثلة المجموعة الأولى « الحب » و « الآباء والأبناء » و « الزواج والعزوبة » و « الصداقة » . وإنك لترى الكاتب فى هذه المرحلة كأنما يكتب بغير عاطفة ، ويكاد يكون

---

(١) Advancement of Learning .

عقلا خالصاً يحتكم إلى منطق العقل ولا يأبه بالمشاعر الإنسانية التى تصدر عن القلب ، ولهذا تراه يقيس الأمور بالنجاح المادى فى الحياة .

ومن أمثلة المجموعة الثانية « المنصب الرفيع » و « الرياء والتصنع » ، وهو فى هذه المرحلة أسوأ ما يكون مبدأ ، فبلوغ الغاية هو كل شىء ، وليس للأخلاق القويمة فى ذاتها وزن كبير ؛ ولعله فى ذلك قد تأثر بمكيافلى ومبادئه السياسية ؛ ومع ذلك فلا تخلو مقالات هذه المجموعة من عبارات تصادفها هنا وهناك يرجع فيها الكاتب عن هذا الشطط ويدعو إلى الفضيلة ، فتراه يقول مثلا : « إن القدرة على فعل الخير هى الغاية الحقيقية المشروعة من الطموح إلى المنصب الرفيع » .

ومن أمثلة المجموعة الثالثة « ما المالك من مجد حقيقى » و « المستعمرات » ، وهو فى هذه المقالات السياسية يبسط لنا السياسة التى تنطوى على بعد النظر والاتزان ؛ فهو — مثلا — يوجه سُرّ النقد إلى سياسة حَصْر الثروة القومية فى أيدٍ قليلة ، لأن « المال كالسحاب لا يجود إلا إذا انتشر » ؛ لكنه مع ذلك لم يكن يرمى إلى ديمقراطية صحيحة لأنه لا يؤمن بمقدرة الدهماء ؛ فهو لا يريد أن تسود المساواة بين الناس جميعاً ، ويقترح أن يمنح المزارعون ملكية أرضهم ، ثم تقوم على رأسهم أرستقراطية تدبر أمرهم ، ثم يحكم هؤلاء وأولئك جميعاً ملكٌ فيلسوف ، ولعله تمنى أن يكونه

وأما فى المجموعة الرابعة التى تعالج موضوعات مجردة ، فتجد مقالات « الموت » و « الحق » و « الجمال » وما إليها ، وهو فى هذه المجموعة أعمق ما يكون علماً وأبعد ما يكون عن التحزب لوجهة نظر بعينها

وهاك أمثلة من مقالاته ؛

يقول فى مقالة عنوانها « فى تصنع الحكمة » :

لقد قيل إن الفرنسيين أحكم مما يبدو عليهم ، والأسبانيين يبدو عليهم من الحكمة أكثر مما لهم ؛ ومهما يكن أمر هذه الفوارق بين الأمم ، فلا ريب فى أن هذا موجود بين الأفراد ؛ فكما يقول « الرسول » عن التقوى بأن من الناس « من يتظاهرون بالتقوى ولا حظ لهم منها » فكذلك لست أشك فى أن من الناس من لا يعملون شيئاً ، أو قل يعملون قليلا ويتظاهرون بعمل الكثير ؛ إنه لمن المضحك الذى يصلح لسخرية أصحاب الرأى

الصائب أن يروا ما يصطنعه هؤلاء المتصنعون للحكمة ليجعلوا معلوماتهم السطحية تبدو كأنما هي ذات عمق وعظمة ؛ فبعضهم كتوم متحفظ كأنهم معرضون عن إخراج سلعهم إلا فى الظلام ؛ وهم يحرصون على دائما أن يتظاهروا بأنهم أفصحوا عن شيء واحتفظوا فى أنفسهم بشيء ، وهم حين يوقنون بينهم وبين أنفسهم أنهم إنما يتحدثون فيما لا يحسنون الحديث فيه ، تراهم مع ذلك يظهرون للناس بمظهر العارف لشيء هم فى الحقيقة يجهلونه ؛ وبعضهم يستعين على تصنع الحكمة بالملامح والحركات ، فهم حكماء بما يبدون من إشارات ، وذلك كالذى قاله شيشرون عن « بيزو » أنه حين أجابه رفع أحد حاجبيه إلى جبهته وأنزل الآخر إلى ذقنه . . .

ويقول فى مقالة عنوانها «فى الدراسة»

القراءة تملأ الإنسان بالعلم . والنقاش يجعله مستعدا بعلمه والكتابة تجعل منه إنسانا دقيقاً ؛ ولذلك لو كان الرجل قليل الكتابة وجب أن يكون قوى الذاكرة ؛ ولو كان قليل النقاش وجب أن يكون حاضر البديهة ؛ ولو كان قليل القراءة لزم أن يكون شديد الدهاء ليظهر العلم بما لا يعلم . إن دراسة التاريخ تزيد الإنسان حكمة ، ودراسة الشعر تزيده فطنة ، ودراسة الرياضة تزيده دقة ، وتزيده الفلسفة الطبيعية عمقاً ، والأخلاق رصانة ، والمنطق والبلاغة قدرة على الجدل

ولبيكُنْ عدا «مقالاته» كتاب « تاريخ هنرى السابع » الذى كتبه بأسلوب نقدى موضوعى ، فكان بذلك من طلائع المؤرخين بالمعنى الذى نفهمه اليوم من كتابة التاريخ ، فقد كان المؤرخون فى العصور الوسطى يستخدمون الشعر أداة للتعبير ، ويؤرخون لفترات طويلة من الزمن ، ولم تكن لهم القدرة على تصوير الشخصيات التى يؤرخون لها تصويراً واضحاً . كما لم يكن فى مقدورهم أن يميزوا بين الحقيقة والخيال ؛ فلما جاءت النهضة لم يستطع مؤرخوها أن يتخلصوا دفعة واحدة من ذلك الأسلوب القديم ، فظل تاريخهم أقرب — فى مجموعه — إلى الحكايات المستطردة منه إلى التاريخ الصحيح ؛ ثم أخذت كتابة التاريخ تتحول بحيث تعنى بتسجيل الحقائق دون الأساطير والخرافة ، وبهذا الأسلوب التاريخى

الجديد كتب بيكُنْ كتابه عن « هنرى السابع » ؛ لقد تناول فيه الموضوع كما تناول أى علم من العلوم ، مطبّقاً فى دراسته الطريقة الأستقرائية التى ابتكرها فكانت آية عظمته فى تاريخ الفكر ؛ فهو يجمع الحقائق ويرتّب النتائج ، فتستطيع أن تعد « تاريخ هنرى السابع » أول كتاب تاريخى كتب بالأسلوب العلمى الحديث ؛ وقد برع فيه الكاتب براعة تستوقف النظر من حيث تصويره الناصع لشخصية الملك وإرجاعه الحوادث إلى أسبابها ، وحسبه فى ذلك فخراً أن البحث الحديث لم يجد فى كتابه شيئاً يحتاج إلى تصويب وتصحيح

ونحب أن نختم لك الحديث عن « فرانسس بيكُنْ » بكتابه « أطلنطى الجديدة » الذى أراد فيه الكاتب أن يرسم دولة مثلى يقوم بنيانها على أساس العلم وحده ، فالأمر فيها زعامه فى أيدى المهندسين والفلكيين والنباتيين والأطباء والكيمياويين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع والنفس ثم الفلاسفة ؛ والحكومة فيها لاتصب سلطانها على الإنسان ، إنما توجه حكمها إلى الطبيعة ؛ فى هذا الكتاب يتمنى بيكُنْ — كما تمنى قبله كثير من الفلاسفة — أن يسود العلم بدل السياسة وأن يتربع العالم الفيلسوف على عروش الملك والسلطان

روبرت بيرتن Robert Burton (١٥٧٧ — ١٦٤٠) .

هو أيضاً من كتاب النثر فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، وقد اشتهر بكتابه « تشريح المرّة السوداء » ؛ [٢] وفيه يحدد معنى المزاج السوداوى ويبحث فى أسبابه وطرق علاجه ، ويخصص الكاتب جزءاً لظواهر المرض السوداوى فى الحب ، وهو فى هذا الجزء فكه إلى حد بعيد ؛ ويختم كتابه بالبحث فى ظواهر هذا المرض فى نطاق الدين ، وهو كلما ذكر لك حقيقة أيدها بمقتبسات استمدها من الآباء والعلماء القدماء والمحدثين على السواء

ولا نستطيع أن نترك الحديث عن بيرتن وكتابه هذا ، دون أن نذكر ما صادفه عند طائفة من أكبر الأدباء من إعجاب شديد ؛ فقد أعجب به « الدكتور جونسُنْ » وافتتن بجماله « تشارلز لام » الذى قال فى إحدى رسائله : « إنى أمعن النظر المرة المتممة للأنف

(١) انظر فلسفة بيكن فى قصة الفلسفة الحديثة .

(٢) Anatomy of Melancholy .

فى إحدى عبارات بيرتن » . وهنالك بعض عبارات ابتكرها هذا الكاتب فشاعت ولا تزال شائعة لما فيها من طلاوة التفكير وقوة التعبير ، نذكر منها : « القزم الواقف على كتف العملاق يستطيع أن يرى أبعد مما يرى العملاق نفسه » . « إن صانع الأحذية حافى القدمين » . « يبنى قصوراً فى الهواء » . « إن الطيور على أشكالها تقع »

سير توصى براون Sir Thomas Browne (١٦٠٥ — ١٦٨٢) :

هو مؤلف الكتاب الذى يحتل فى الأدب الانجليزى مكانة عالية « رلجيو مدتشى »[1] الذى لم يكد يظهر حتى ترجم إلى الفرنسية والهولندية والألمانية والإيطالية ، وقد كان براون فى هذا الكتاب من أرباب الأسلوب المصقول ، فهو يعنى بجودة اللفظ أكثر مما يعنى بقوة الفكرة ، ولم يدخر وسعاً فى تزويق عبارته وترصيعها بحيث يخرجها وكأنها النسيج المزخرف الموشى ؛ والكتاب فى مجموعه تأملات فلسفية فى معانى الحياة والموت ، فنقتطف منه هذه العبارة لتمثل اتجاهه الفكرى :

« ليست حياتى سوى معجزة تمت فى ثلاثين عاما ؛ فان رويت قصتها فلست بذلك أروى تاريخاً وإنما أقدم قصيدة من الشعر ، وستتلقاها المسامع كما تتلقى خرافة من خلق الخيال . أما هذا العالم فلست أراه فندقا بقدر ما أراه بمثابة المستشفى ، فليس هو بالمكان الذى نحيا فيه ، إنما هو مكان نلفظ فيه الروح ونموت . وما العالم الذى أراه إلا نفسى ، فلست بمستطيع أن أرسل البصر إلا ليشهد جرمى الضئيل الذى ينطوى فيه العالم الأكبر .

ليست الأرض نقطة صغيرة بالنسبة الى أجواز السماء التى فوقنا فحسب ، بل هى كذلك بالنسبة إلى الجوهر السماوى الإلهى الذى فينا ؛ إن هذه الكتلة اللحمية التى تحيط بى لا تحدُّ من عقلى ؛ إن هذا السطح الجسدى الذى ينبئ أن لى حدوداً لا يحملنى على الظن بأننى كائن محدود ... لست أشك فى أننا ننطوى على شعلة من الله ، إنها شعلة وجدت قبل أن توجد السماء ، ولم تستمد ضوءها من الشمس . إن الطبيعة لتنبئنى أننى صورة لله كما أن الكتاب المنزل صورة أخرى ؛ وإن من لا يعلم هذا لا يعلم المقدمة ولا الدرس الأول ، وعليه أن يعيد دراسته للانسان مبتدئاً بأحرف الهجاء » .

---

(١) Religio Medici